

دولوز قارئاً سبينوزا نحو تأسيس فلسفة ما بعد ديكارتية

Deleuze Reading Spinoza: Towards a the Foundation of a Post-Cartesian Philosophy

بارش ريمة¹ ، اسماعيل مهنانة²

¹ جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري ، rima.bareche@univ-constantine2.dz

² جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري ، mehnanasmail2000@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2024 / 09 / 20 ؛ تاريخ القبول: 2024 / 10 / 27 ؛ تاريخ النشر: 2024 / 12 / 01

الملخص باللغة العربية:

تحاول هذه الورقة البحثية تحليل بعض وجهات النظر وإبراز مكامن التجديد والإحياء للفكر السبينوزي ، التي خصها دولوز في قراءته التاريخية لنسقه الفلسفي ، من خلال محاولاته لتأسيس عقلانية ما بعد ديكارتية تقف في مقابل عقيدة الكوجيتو وأسسها الذاتية . إستثمار الآلة المفاهيمية لإيتيقا سبينوزا كإستراتيجية ضدية في إزالة الغموض الوجودي الذي تسبب في تجريد و تأزم وضعية الذات الإنسانية ومنظور الجسد ، بنقلها من سؤال الماهية و الأحكام الاخلاقية المطلقة إلى سؤال القدرة ، بحيث يسعى كل كائن بما في ذلك الإنسان بموجب قدرته الحفاظ على بقاء وجوده ، ويمثل هذا الجهد أو الكوناتوس قانونا كونيا للحياة . يشمل جميع الموجودات . دون إستثناء أو مفاضلة قيمة من شأنها أن تعيد حضور المتعالي ضمن تسلسل هرمي . بهذه الكيفية يتحقق التساوي مع الخلق ضمن أنطولوجيا المحايثة .

الكلمات المفتاحية:

سبينوزا ؛ ديكارت ؛ الجسد ؛ الواحدية ؛ التعبير .

Abstract: This research paper attempts to analyze some points of view and highlight the potentials of renewal and revival of Spinozist thought, which Deleuze singled out in his historical reading of his philosophical system, by establishing a post-Cartesian rationalism that stands in opposition to the doctrine of the Cogito and its

بارش ريمة[♦]

subjective foundations. Investing in the conceptual machine of Spinoza's ethics as a counter-strategy in an attempt to remove the existential ambiguity that caused the abstraction and deterioration of the status of the human self and the perspective of the body, by moving it from the question of essence and absolute moral judgments to the question of ability, so that everything, including man, seeks according to his ability to maintain the continuity of his existence. This effort - conatus - represents a universal law of life. In this way, equality is achieved with the rest of the beings, without exception or value differentiation that would restore the presence of the transcendent within a hierarchy. Only from here is the ontology of immanence achieved.

Keywords: Spinoza; body; univocity ; expression; immanence.

مقدمة:

إستعادة النصوص السبينوزية ضمن القراءات الفلسفية المعاصرة ، بالعمل على تحيّن خطابها من جديد — شرحاً ، وتأويلاً ، وترجمة - هي محاولات جاءت لغايات عملية بالأساس ، كونها تطرح اليوم المشكلات الراهنة الأكثر إلحاحاً خاصة فيما تعلق بشقها الأخلاقي والعقدي ، أين نلاحظ فاعلية حضورها من تلك الدراسات الساعية إلى تأسيس رؤية إيتيقة للعالم *La vision éthique du monde*. وذلك من خلال إستحضار جوهر الفلسفة السبينوزية ، بجعل الفرح *La joie* أو السعادة *Le bonheur* الطريقة الجديدة للوجود . هذا الأثر الذي نلمس وقعه في مصاف الانشغالات الفرنسية بخاصة ، مع الأعمال الأخيرة التي روجتها فلسفة كل من روبير مسراحي R.Misrahi ، فرديريك لونوار ... F.Lenoir

حضور سبينوزا وفق المجال التداولي الفرنسي - كونه الأكثر إهتماماً إتخذ صوراً عديدة في القراءة ، كيّف بها طريقة معينة للقاء ، بدايةً مع وهجة القراءة الدولوزية ومهدداً الطريق للولوج إلى عالم سبينوزا ، ضمن كتاباته حول تاريخ الفلسفة. فالرهان الذي إشتغل عليه دولوز كإستراتيجية في العمل تحدت في سحب سبينوزا من قوقعته المنسية و إعادة إستثماره من جديد لحساب فلسفته الخاصة ، من خلال محاولة فهم وتأويل الجوانب المهمشة التي غدت السبينوية في إطار التجاوزات التي أرفقها هذا الأخير في لمجال النظري والعملي . والتي إستحضرتها في مؤلفه الأساس الإيتيقا *Ethique* ، أين إستطاع من خلاله أن يلخص مشروع

فلسفي متكامل الأوجه اسقط به كل إغراءات التعالي ، متجاوزا وناقدا لكل مسلمات التراث الفلسفي السابق - منطق الميتافيزيقا التقليدي والحديث - ، ليؤسس في مقابله أنطولوجيا جذرية محايدة للوجود ، هذا التصور الذي أرفقه دولوز لفلسفة سبينوزا قدمه بالكيفية التي يرى منها فلسفة مضادة للديكارتية ، ووجهها آخرًا للتقليد العقلاني ، يهدم هرمه الأنطولوجي الذي أعلى من مكانة الذات الإنسانية على حساب باقي الموجودات ومفاضلته بشرعية العقل وملكة التفكير . لتقلب نظرية التوازي السبينوزية هذا التصور، وتجعل من هذا الكائن المفكر مجرد كيفية وجود *manière d'être* ، وعلاقات قوى تفعل وتنفعل ، المحكوم بحركة الرغبة أو الكوناتوس .

من هنا نأتي إلى طرح التساؤل التالي والذي نحاول من خلاله مقارنة الفهم للكيفية التي تمت بها قراءة النص السبينوزي بالكشف عن المجاهيل التي غُيبت عن أنطولوجيا الذات وعليه : كيف إستطاع دولوز تجاوز النسق الديكارتية وعقباته الأنطولوجية لحساب منطق وجودي محايت تكون وضعيه الانا فيه كجزء من الكل - الطبيعة - أو بتعبير سبينوزا كحال *mode* من أحوال الوجود التي تتفاعل داخل نظام الجوهر بحيث يكمن فرقها الوجودي الوحيد في مدى استمرار قدرتها على الوجود ؟.

1- التلقي الفرنسي للفكر السبينوزي :

يرجع تاريخ إستقبال فلسفة سبينوزا في الساحة الفكرية الفرنسية إلى بواكير إنتشار سمعته في الأوساط الثقافية الأوروبية آنذاك ، إذا يمكن تحديد فترة الاهتمام بشكل صريح ومعلن مع بداية القرن التاسع عشر ، إلا أن تاريخ الحضور الفعلي كان قبل ذلك بكثير، يرجع لنهاية القرن السابع عشر ، مع التكتّم والتحفّظ السري في تعامل النصوص السبينوزية سواء في قرائتها أو الاشتغال عليها . فسرعان ما ترجم كتاب رسالة في اللاهوت والسياسة إلى الفرنسية من قبل غابرييل دي سانت غلين GS.Glain ، الذي تم تداوله بشكل شبه سري منذ عام 1678 تحت عناوين مختلفة كـ " رسالة في الطقوس الخرافية لليهود " *Traité des cérémonies superstitieuses des Juifs, tant anciens que modernes* ، كما تمت ترجمة كتاب الإيتيقا على يد المؤرخ الفرنسي هنري دي بولانفيليه H.Boulainvilliers حوالي عام 1712 ، والذي كان هو الآخر مُعد للاستخدام الخاص لم يُكتشف ويُنشر إلا في عام 1907 . أما أول ترجمة فرنسية منشورة للإيتيقا ولباقي أعمال سبينوزا فظهرت في وقت لاحق مع منتصف القرن التاسع عشر بداية سنة 1842 من إصدار إميل سيسيت Émile Saisset . (MOGENS, 2021, p. 506/507) ،

تابعتها مساهمات تشارلز أبوهن Charles Appuhn . هذا الأخير لا تزال ترجماته لأكثر قراءة في فرنسا .

رغم ذلك تبقى هذه الفترات من الإستقبال الفرنسي لسبينوزا ، على هامش برامج الفلسفة الجامعية والتفكير المؤسسي ، ومحظوراً من الفكر الرسمي " نظام فكري غير قابل للتصنيف " (Lorenzo, 2009, p. 422) اين طبق عليه المنع والصمت المفروض نتيجة نزعة الراديكالية وانتقاداته للسلطة الدينية ، وتحليلاته التاريخية للكتاب المقدس ، والذي اتهم على إثره بالزندقة والإلحاد ، ما نجم عنه استنكار ورقابة سياسية لكل ما يكتب عنه . معاصرتة للفلسفة الديكرتية وشعارات المذهب العقلي روجت لبعض التأويلات السلبية البعيدة عن جوهر السبينوزية منها تصنيفه كديكرتي مع تحول إتهامه نحو الثيولوجيا القديمة . خاصة بعد نشر سبينوزا أول مؤلف له بعنوان " مبادئ فلسفة ديكرت " فجاء تصريح " أن أعمق قناعات ديكرت ليست بعيدة جداً عن آراء سبينوزا " (MOGENS, 2021, p. 509) هذا الرأي فتح نقاش واسع وجدال حاد بين الديكرتيين بالرفض التام له ، واعتباره تهديداً للفلسفة الديكرتية . بدأت حملة اصلاح المشهد الفلسفي من خلال إعادة نشر طبعة جديدة لأعمال ديكرت في عشرينيات القرن التاسع عشر ، بواسطة فيكتور كوزين Victor Cousin رئيس تاريخ الفلسفة الحديثة في جامعة السربون . الذي اعتمد على إستراتيجية فصل سبينوزا عن تراثه الديكرتي وتصويره على أنه راهب يهودي ، وأن فلسفته لم تكن عقلانية حقيقية تركز فيها على الدليل الذاتي للكوجيتو بل لا تعدو أن تكون نشيداً صوفياً تمحي الشخصية personnalité من الوجود ، بعيداً عن كونه ملحداً كما يُتهم ، كان إحساسه بالله عالياً إلى درجة أنه فقد إحساسه بالإنسان " (MOGENS, 2021, p. 511) . وعليه لم تحظى السبينوزية عبر تاريخ هذه الحقبة بتمجيد كلي لفلسفته ، أين غُيّبت أصوات التفكير الحر لصالح إتهامات شعبية ظلت حبيسة أوهام الفكر ببقيت على هامش النقد .

يمثل القرن العشرين إنتقالة نوعية وولادة جديدة للسبينوزية في فرنسا ، أين سجلت فيها أعمال علمية مهمة حوله ، بداية مع نشر فيكتور دلبوس Victor Delbos المشكلة الأخلاقية في فلسفة سبينوزا Le Problème du mal dans la philosophie de Spinoza أحدث المؤلف تأثيراً قوياً على الفكر الفرنسي بتقديمه لقراءة تاريخية محايدة

لفلسفته ، والذي يرجع له الفضل في إدخال السبينوزية وإنتشارها في النظام الجامعي من خلال دوراته التي قدمها في جامعة السربون .

كتاب ليون برونشفيتش Léon Brunschvicg بعنوان سبينوزا ومعاصروه Spinoza et contemporains ses أبدا اهتماما خاصا بالسبينوزية في وضع عقلانيته في مواجهة ضدية لمعاصريها العظماء في تاريخ الفلسفة : ديكارت ، باسكال ، ومالبرنش .. ، بادعاءه أن سبينوزا يقف بمفرده مع عقلانيته المتكاملة rationalisme intégral التي تتميز بحدس يتجاوز التجريدات الميتافيزيقية للعقل الكلاسيكي . (Lorenzo, 2009, p. 424)

قيل عن هذا القرن " أن فلسفة سبينوزا كانت مصدر الإنطلاقة الحيوية للنظرية الفرنسية الراديكالية " . (Jack & Charles, 2019, p. 24) . وجدا سبينوزا مكانه أخيرا ضمن موجة الانقلاب والتجديد الفكري الذي شهدته الساحة الثقافية الفرنسية خلال خمسينيات القرن الماضي ، عودة قوية لفلسفته ضمن التوجهات المعرفية المعاصرة ، في التحليل النفسي مع جاك لاكان ، انطولوجيا مع آلان باديو ، سياسيا مع لويس ألتوسير وطلابه بيار ماشيري واتيان باليبار ... ، فالعامل المسؤول عن وضع السبينوزية في مركز الإهتمام وتطورها بشكل عام خلال هذه الفترة هي الطريقة التي إعتبر بها العديد من قرائه الفرنسيين " أن سبينوزا سلف حقيقي لماركس " (Jack & Charles, 2019, p. 25) . فالنصوص السياسية لسبينوزا تعد اليوم مصدرا مهماً ، وملهما للقراءات والنظريات السياسية المعاصرة التي شككت في طبيعة الشمولية وجوهر الديمقراطية . فكر يرفض باسم الحرية السياسية الخضوع لأي سلطة ، التمرد على كل التقاليد الموروثة . صيحات تحررية رفع شعارها أنا ذاك الحركات اليسارية الراديكالية ، ماخلفته أحداث 8 ماي خير دليل .

بات في الإمكان الحديث عن منعطف سبينوزي Le tournant spinoziste مع نهاية الستينيات بافتتاح موسم جديد من الدراسات السبينوزية الفرنسية . تمثل سنة 1968 نقطة تحول ، أقدم عليها بعض المفكرين الذين يعملون على هامش الماركسية والبنوية المهيمنة في تلك الفترة ، ظهر في نفس اللحظة تقريبا تعليق مارسال جيرولت Martial Gueroult على الجزء الأول من كتاب الايتيكا ، وكتاب جيل دولوز عن سبينوزا ومشكلة

التعبير ، وكتاب ألكسندر ماثرون عن الفرد والجماعة عند سبينوزا ، هذه الدراسات شكلت بداية تجديد حقيقي للسينوزية ولا تزال آثارها واضحة حتى اليوم ، قدمت هذه الأعمال أسس نقدية جديدة أصبحت بفضلها مرجعا لأكثر من جيل . للمزيد من الدراسات المعاصرة نجد الثراء المعرفي الذي قدمه روبير مسراحي لفكر سبينوزا ، هذا الأخير كرس حياته بأكملها ، الفكرية والمهنية لدراسة وتدريس السينوزية تأليفا وترجمة ، إذا تعد ترجمته لكتاب الايتيقا آخر الترجمات المعاصرة ، أرفقها بملاحظات و تقييمات شخصية . صرح في مستهل ترجمته أن أمله يكمن في " قيادة قارئ سبينوزا نحو الرغبة في فرح حرّ ، ونحو اليقين بان هذا الفرح يمكن الوصول إليه وتحقيقه بالفعل (SPINOZA, 2005, p. 9). بالإضافة الى اسهامات لوك فيري، فريدريك لونوار، و كونت سبونفيل حول مذهبهم في السعادة الذي يدين بالكثير لفكر سبينوزا .

ما سنحاول توضيحه من هذا الجانب والذي يهمنا بشكل أدق هو الكيفية التي تمت بها قراءة سبينوزا من وجهة نظر دولوز .

2/ سبينوزا وتاريخ الفلسفة

تحدد السياق الفكري الذي بدأ فيه دولوز رحلته الفلسفية بممارسته لتاريخ الفلسفة ، من خلال تأليفه لدراسات مختلفة لبعض الشخصيات الكلاسيكية ، هذه الرحلة أخذت منه جهد سنوات لمساره الفكري ، ونقطة انطلاق لمشروعه الفلسفي . إذا تعد مرحلة مفصلية لا محيد عن نكران أهميتها في فهم الخطوط العريضة لفلسفته . يؤكد في أحد مواضيع كتبه قوله: "مارست لفترة طويلة تاريخ الفلسفة وقرأت كتبا عن هذا المؤلف وذاك إلا أنني كنت أتيح لنفسني فرص التعويض بطرق متنوعة. بدءا كنت أكن المحبة لمؤلفين كانوا يعارضون التقليد العقلاني في ذاك التاريخ فبين لوكريس وهيوم وسبينوزا ونيتشه يبدو لي أن هناك رابطة سرية تتكون من نقد السلب وتمجيد الفرح وكرهية الداخل وظاهرية القوى والعلاقات وإدانة السلطة..." (Deleuze, 2003, p. 14) .

من هنا يمكن فهم السياق الفكري الذي اشتغل عليه دولوز في بناء مشروعه الفلسفي بداية قرب المعرفي للتقليد التجريبي الحيوي الناقد لكل مظاهر السمو والتعالي. فبعد نشره لأعمال فلسفية مهمة من سنة 1953 الى 1966 ، اشتملت فيها قراءته لمجموعة

من الفلاسفة مثل : دفيد هيوم ، ونيته ، كانط ، برغسون. في عام 1968 ، ناقش دولوز أطروحة الدكتوراه الخاصة به " بعنوان الاختلاف والتكرار " ، أرقفها بأطروحة ثانوية حول فلسفة سبينوزا بعنوان : سبينوزا ومشكلة التعبير ، عالج من خلالها مفهوم التعبير *l'expression* بعمق دلالتها الفلسفية بعيدا عن التصورات اللاهوتية ، التي إنزلت من تقليدي الفيض والخلق . بمداه الأنطولوجي والمعرفي أراد دولوز من فكرة التعبير " التخلص من كل الصعوبات المتصلة بوحدة الجوهر وتنوع الصفات " (دولوز، 2004، صفحة 5).

كيف يقرأ دولوز نصا فلسفيا ؟ هل تاريخ الفلسفة يقتصر فقط على إستيعاب النصوص التقليدية أم أنها قادرة أيضا على تقديم إضاءة جديدة لها ؟ لطالما أجاب دولوز على هذا التساؤل في العديد من لقاءاته الحوارية ، فالكيفية التي مارس بها دولوز قراءاته لتاريخ الفكر الفلسفي كانت ضد قيم التأريخ ، و الكتابة التاريخية الكلاسيكية : الولاء للنصوص وحياد المؤرخ ، وموضوعية منهجه . إلى محاولة إستنطاق إمكانات النص بدل الإمتلاك السلبي لها ، إعادة التفكير فيها من خلال تفعيل و تجديد مشكلاتها ومفاهيمها في سياق معاصر لها. (Cherniavsky, 2013, p. 15)

الفيلسوف ليس متأملا عاكسا ، بل هو مبدع ، ومهمته التاريخية تستدعي قراءة مختلفة ، والبحث عن أسس جديدة يحذف بها الصورة الماضوية للنصوص القديمة ونظرتها الأحادية والنظر لها كتفردات في فضاء مفتوح . أن نَعُوْض تاريخ الفلسفة كما يقول دولوز " بنوع من الإخراج المسرحي ، فهذه طريقة جيدة لحل المشاكل المنهجية ، يعني أن النص المكتوب ستسلط عليه الأضواء بفضل قيم أخرى ، قيم غير نصية " (دولوز، 2021، صفحة 12)

بهذه الكيفية تحددت قراءة دولوز لتاريخ الفلسفة ، تُبني مشكلات الفيلسوف الأساسية إمتلاكها من جهة إضفاء معاني جديدة لها تنحصر مع ما تقتضيه دواعي إستعمال النص والمفهوم راهنيا . و الأمر ينحصر مع مدى قوة تواجد الفيلسوف ضمن حركة صيرورة الفكر لتتسائل : ماهي المشكلات المستمدة من قراءة سبينوزا ؟ قراءة دولوز لسبينوزا هو في صلب إعادة إحياء المشكلات الفلسفية التقليدية ، لكن من منظور تأويلاته الشخصية لها فلا ينحصر عمله في شرح وتحليل مواقف سبينوزا منها ، بل يعرضها بالكيفية التي تتماشى

مع فكره ، فمشكلة علاقة الجوهر بالصفات ، أو علاقة اللانهائي بالمحدود ، ماهي إلا محاولة لإعادة النظر في الجدل الميتافيزيقي بين سبينوزا وديكارت حول تعريف الله .
وكمحاولة لتجاوز النسق الديكرتي وهدمه عن طريق سبينوزا نفسه .

يأتي مؤلفه الثاني بعنوان : " سبينوزا فلسفة عملية " وهو عبارة عن مقالات تم جمعها في كتاب واحد سنة 1981 ، نشر دولوز هذه الطبعة المصغرة التي تغطي سيرة سبينوزا ومقتطفات من المراسلات مع بلينبورج حول مشكلة الشر ، كما يحتوي على فهرس المصطلحات الأساسية من كتاب الإيتيقا ، ومقالين عن الرسالة السياسية غير المكتملة . في المقال الأخير بعنوان " سبينوزا ونحن " يوضح دولوز كيف ألهمت فلسفة سبينوزا الشعراء والفنانين وأعطت بُعداً معاصراً اقتضاه المفهوم العملي . ففلسفة سبينوزا لا تتوقف في بعدها النظري البحث بل تتعدى جانبها التطبيقي موضحاً ذلك في قوله : " أن هناك بالأحرى شيئاً غريباً مميزاً لسبينوزا لم يحققه أحد غيره ، فهو فيلسوف يمتلك آله مفاهيمية استثنائية ، في نفس الوقت الفيلسوف الذي يتيح إلى أقصى حد أن نلتقي به مباشرة دون سابق إنذار ، إلى درجة أنه بإمكان غير الفيلسوف أو الشخص الذي لم يُحصَل أي ثقافة أن يتلقى ضوءاً مباشراً منه كالبرق . الأمر وكأننا نكتشف بأننا سبينوزيين فحس ونحن نبلغ إلى قلب فلسفته ، أنه يشدنا ويسحبنا ببطء إلى هذا النسق والتركيب " (دولوز ، 2015 ، صفحة 157) . يعود دولوز إلى هذا التأكيد في كتاب آخر بعنوان " ما الفلسفة " أن سبينوزا يمثل مسيح الفلاسفة بالطريقة التي يجعل بها الفلسفة و اللافلسفة متحدين في كائن واحد . " سبينوزا هو الصيرورة الفيلسوف اللامتناهي " (دولوز و غتاري ، 1997 ، صفحة 75) .

فمكانة سبينوزا بالنسبة لدولوز تختلف تماماً عن باقي المساهمات التي تناولها في مسار تأليفه للشخصيات التاريخية ، له حضور شخصي متميز قبل أن يتكون له مسار حاسم في تشكل وعيه الفلسفي . صح عن دولوز نفسه أنه قال حمل سبينوزا في قلبه قبل أن يحمله في عقله . وذلك منذ كتابه التعبيرية في الفلسفة إلى غاية آخر ما تم تأليفه في مقال بعنوان : " المحايثة حياة " هذا المفهوم الغامض السر كما وصفه دريدا إستنبطه دولوز أثناء قراءته لكتاب - الإيتيقا - ، مع العلم أن سبينوزا لم يوليه اهتماماً واسعاً بالقدر الذي انتهى إليه دولوز . استخدمه سبينوزا في وحدته مع السببية الإلهية " الله علة محايثة لا متعددة للأشياء جميعاً " (سبينوزا ، 2009 ، صفحة 54) ، فالعلة المحايثة هي اظهر كيف

أن المحايثة عند سبينوزا محدد في شكل علاقة ، السبب بالنتيجة *cause- effet* ، بمعنى أنه لاشيء يعطى خارجا عنه ، كل ما يحدث يكون ضمنه ، بصورة أوضح تفهم كتماهي كلي بين الله و الطبيعة ، مع دولوز تتخذ المحايثة شكلا راديكاليا : المحايثة ليست الا لذاتها وانطلاقا من ذلك فهي تضم الكل وتستوعب الكل —الواحد ولا تترك شيئا لذاته مادامت قادرة على محايثته ، كلما فسرنا المحايثة باعتبارها محايثة لشيء ما ، فاننا نتأكد من أن هذا الشيء سوف يعيد إدخال المتعالي " (دولوز و غتاري ، 1997 صفحة 64) . فدولوز لم يتوقف عند حدود النظر للمحايثة على أنها نقيض التعالي ما أراده من المفهوم هو فلسفة تتجاوز التعارض التقليدي بين الذات والموضوع الداخلي والخارجي . إنها الحياة ؛ القوة و الغبطة المطلقة . قوة الفكر وقوة الوجود .

جعل دولوز من هذا المفهوم الخيط الناظم الذي حرك مجمل أفكاره الفلسفية بدأ من قراءته التاريخية الى نظرياته السياسية والجمالية ، جعل منه خلاصة تجربة فلسفية دامت لسنوات من حياته الفكرية. حتى لقب بفيلسوف المحايثة . وعليه سنسعى الى تفصيل بعض الجزئيات المهمة لمفهوم المحايثة لتتعقب تحركاته في فلسفة دولوز وكيف تم درجته من نسق سبينوزا من خلال ما نظر له في كتاب سبينوزا و مشكلة التعبير ، ليكون التعبير الدافع الاول لتولد المحايثة .

3/ مشكلة التعبير وأنطولوجيا الوحدة

يقول بيار ماشيري :إن قراءة فيلسوف مثل سبينوزا أو " ممارسته " يعني على وجه التحديد فك رموز علامات تفرده ، أي إكتشاف ماهو إشكالي في فكره . لكن ماهي المشاكل في الفلسفة ؟ إنها ليست نظريات أو تنظيمات مذهبية ، أي كل ما يعاد تصنيفه في إطار ترتيب تحليلي للأسباب : بل هي بالأحرى المفاهيم التي تعمل عليها " (MACHERY, 1988, p. 41) . فالمفهوم الذي يسمح لنا بفهم سبينوزا و إتخاذه وسط معنى هذي الصيغة حسب دولوز هو " التعبير " بإبراز دورها وأهميتها من خلال التعريف السادس من الجزء الأول للإتيقا " أقصد بالله كائنا لا متناهيًا بصورة مطلقة ، أي جوهرا يقوم على عدد لا متناهي من الصفات يعبر كل منها على ذات أزلية ولا متناهية . فالله يعبر عن نفسه بنفسه قبل أن يعبر عن نفسه في معلولاته الله يعبر عن نفسه بتكوينه ، بذاته ، الطبيعة

الطابعة (الجوهر من حيث هو علة وصفات) قبل أن يعبر عن نفسه بإنتاجه ، في ذاته الطبيعية المطبوعة (الصفات من حيث هي أحوال وأثار) " (دولوز، 2004، صفحة 6/5) . وهذا هو المعنى الذي ينبغي بحسبه أن نفهم صفة وحدة الوجود التي توصف بها فلسفة سبينوزا .

تتعلق مشكلة التعبير في فلسفة سبينوزا، في المقام الأول، بالتفاعل بين الفكر الداخلي والأجسام الخارجية، وكيف تأتي الأفكار للتعبير عن هذه العلاقة بين الداخل والخارج باعتبارها علاقة داخلية لقوة الفكر. المشكلة التي شرع دولوز في حلها أولاً من خلال قراءته لسبينوزا هي على وجه التحديد ما هو موجود في فكرة حقيقية يجعلها مناسبة أو "معبرة" عن طبيعة الشيء كما هو في حد ذاته. تم العثور على حل المشكلة في مبدأ التوازي الجذري لسبينوزا، حيث يقال إن الطابع التعبيري للفكرة محايث في الأشياء نفسها، ومن صفة الحقيقة التعبير عن هذا المحايثة بشكل كامل. (Charles J, 2011, p. 33)

والتعبير لدى سبينوزا مرمي أنطولوجي ومعرفي - منطقي. فهو يبعث الحياة في نظرية الله والمخلوقات والمعرفة . يعتمد عليه لتجاوز صعوبات الديكرتية وإصلاح فلسفة الطبيعة ، بل حتى لدمج مكتسبات ديكرت في منظومات معادية معادة للرؤية الديكرتية للعالم - من ثنائية الجوهر الى أحاديته - وبقدر ما يمكن الحديث عن عداء لها من قبل سبينوزا فإن هذا العداء يقوم على فكرة التعبير (دولوز، 2004، صفحة 9/8) .

فالتعبير يؤكد على وحدة الجوهر ويؤكد على المحايثة ، نستدل بموقف سبينوز : لا يوجد سوى جوهر واحد، وهو الله ، الذي منه يتم التعبير عن عدد لا نهائي من الصفات. فالله، بحسب التعريف السادس للجزء الأول من كتاب الأخلاق ، "لانهائي على الإطلاق". لذا فإن المحايثة تترجم إلى حقيقة أن الله هو كل ما هو موجود، وأن كل ما هو موجود هو كل ما يمكن أن يكونه الله. وهكذا، في قلب هذا الموقف، يقصد وضع حد للفصل الأنطولوجي بين الله ومخلوقاته -(كما هو الحال في ميتافيزيقا التعالي حيث يكون الله دائماً خارجياً عن الكائن الذي خلقه، لأنه وفقاً لتعريف ديكرت، هو الكمال المطلق) - وجعل الوحدة تسود. هذا التساوي بين الله والوجود هو ما جلب لسبينوزا جميع اتهامات وحدة الوجود Panthéisme ، ولكنه بالنسبة لدولوز يعني إمكانية التفكير في " الفوضى

المتوجة "anarchie couronnée" للوجود ، أي ميتافيزيقا تكون فيها جميع الانماط على نفس مستوى مع الله " (Lawrence & Yves, 2018, p. 93)

يعتقد دولوز أن أنطولوجيا سبينوزا معبرة عن نفسها - تواطى الكينونة - ، لا تفهم كنظام موضوعي ، بل على شكل فكر في الفعل *pensée en acte* ، والعيش والحركة ، هذا النهج يبدأ من الفرضيات الثمانية الأولى من كتاب الإيتيقا ، من أجل اظهار أن الجوهر لا يمكن أن يكون متعاليا لنفسه ، متجاوزا لذاته ، لأنه بقدر ما يكون مكونا من عدد لانهائي من الصفات ، فهو يشكل إنتاجه الخاص به . (Pascal & Sauvagnargues, 2016, p. 21)

من هنا يكمن الفرق التأويلي الذي أضفاه دولوز على الوحدة التعبيرية في قرائته لسبينوزا من خلال بسط أنطولوجيته من أحادية الوجود إلى مستوى المحايثة المطلقة .

4 / ما الذي يستطيعه الجسد ؟

عندما يقول سبينوزا : " نحن لا نعرف حتى ما يستطيعه الجسد ، فهذه صرخة حرب تقريبا ، نتحدث عن الوعي والروح والنفس ، وسلطة النفس على الجسد ، ونحن نثرثر على هذا النحو ، لكننا لا نعرف ما يستطيعه الجسد " (دولوز ، 2004 ، صفحة 211) ،

كان هذا القول من بين الهجمات العديدة التي شنّها سبينوزا ضد فلسفة ديكارت ، ومن بين اهم المسائل التي عالجها دولوز وبعمق في كل من كتابيه حول سبينوزا فالى جانب عدم قدرة ديكارت على التفكير في غموض الوجود ، وعدم كفاية ماهو واضح ومتميز كمعيار للحقيقة ، نجد غياب مبدأ عدم فاعلية العلاقة بين الروح والجسد (BEAULIEU, 2003, p. 217) ، اذ تعتبر هذه الاخيرة من أكثر الإنتقادات عنوة في محاولة دولوز تقديم مبرراتها لدي سبينوزا ، بحيث يفكر الاخير في الجسد والروح / العقل . ضمن علاقة أحادية ، لا انفصالان عن بعضهما البعض ، وان تأثيرات الجسد عند سبينوزا يمكن أن تتوافق مع أفكار العقل والعكس صحيح ، عكس ديكارت الذي يرى أن نشاط الروح يتناقض مع سلبية الجسد .

فهذا التعارض الهرمي بين هاتين السمتين أمر عفا عليه الزمن ، فليس العقل أشرف من الجسد ، والأخير ليس أقل نبلا من الأول . الجسد والعقل لهما في المنظور المحايث

لسبينوزا ودولوز كرامة متساوية ، وكما أنه لا يوجد تسلسل هرمي بين الله والإنسان ، فإن النفس والجسد في نفس المستوى .

يطرح سبينوزا فكرة غير عادية عن الفرد في قوله : " يملك كل فرد من حيث هو نفس وجسد ، ما لانهاية له من الأجزاء التي تنتمي إليه في ظل علاقة ما مركبة ، يبقى مع ذلك أن ، كل فرد يكون هو ذاته مركباً من مستوى أدنى ويدخل في تركيب أفراد من مستوى أعلى...يؤثر كل فرد في الآخر ، مادامت العلاقة التي تؤسس كل واحد تشكل درجة من القوة وقدرة في التأثير كل شيء عبارة عن التقاء وسط الكون ، إلتقاء جيد أو إلتقاء سيء" (دولوز و بارني، 1999، صفحة 78) .الفرد كتركيبين وقدرة ودرجات ، هذه القوة التي تدفع الوجود الى حدوده القصوى يسميها سبينوزا بالكوناتوس - الجهد المبذول للاستمرار في الوجود — ويسميها دولوز بالرغبة التي تحددها المشاعر / الانفعالات . وفقاً لسبينوزا، فإن الـ "كوناتوس" أو الرغبة يتم إعادة تنشيطها من خلال اللقاءات التي إما تجعلنا أكثر نشاطاً، مما يزيد من قوتنا ويشير الفرح، أو على العكس من ذلك، تحمل مشاعر حزينة تدنينا بالعجز والسلبية، وتعيق قدرتنا على الفعل. ككائن متأثر، يمتلك الإنسان القدرة على تمييز ما يجعله حزيناً أو فرحاً؛ وبالتالي فهو قادر على التمييز بين اللقاءات الجيدة والسيئة. (Dosse, 2007, p. 146).

" لا تتحدد الأجساد بواسطة جنسها أو نوعها أو بواسطة أعضائها ووظائفها ، وإنما بواسطة ما تكون قادرة عليه ، وبواسطة العواطف التي تكون قادرة عليها سواء كان ذلك في الانفعال أو في الفعل " . (دولوز و بارني، 1999، صفحة 79).

فدولوز عندما يناقش موضوع الجسد لا يستثني الجسد الانساني على الجسد الحيواني فهما سيان في انطولوجيته الاحادية ، بل الجسد ككائن حي . وعليه ما وجب ايضاحه بشكل ادق من هذا القول هو أن دولوز يطرح فيه مسألة الاختلاف الوجودي والكيفية التي يتم بها النظر الى الفروقات بين الكائنات . فضع التصنيف الارسطي الذي يصنفها الى اجناس وأنواع والفرق يكمن في الاختلافات النوعية بين أفراد الجنس الواحد . يرى دولوز أن الاختلاف يكمن في درجة القوة التي يعبر بها كل كائن عن نفسه ، ولا يعتمد ابداً على هذه

التصنيفات الجامدة . فهي لا تعكس أبدا التعقيد الواقعي و الحقيقي للاختلافات داخل الافراد .

من هنا يميز دولوز وجهات النظر بين الروئية الأخلاقية Morale و الايتيقية Éthique والكيفية التي تتفاعل فيها مع سؤال ماهو الجسد ؟

حسب الرؤية الاخلاقية ستجيب وفق نظام الأحكام ، فهي تعرف مسبقا ماهية الجسد دون أن تراه يتحرك ، ووفقا لما تعتقد أنها تعرفه . بينما تعكس الرؤية الإيتيقية السؤال الماهوي صيغتها الإيتولوجيا éthologie إلى ما الذي يستطيع الجسد فعله ؟ اي حسب مقدار قوته ، فالإيتيقا تحدد اذن الفرد وفقا للتأثيرات التي هو قادر عليها من خلال لقاءات حسنة أو سيئة تنعكس في النافع والضار ، خارج الصورة الاخلاقية للفكر ، التي ترتبط ارتباطا وثيقا بنظام التمثيل représentation ، بفصل الجسد عن قوته وجعله في عزلة مجردة . وبل منحه منزلة دونية على حساب شرف مكانة الفكر .

الخاتمة:

تتخذ قراءة دولوز لفلسفة سبينوزا أشكالا عديدة ، سواء في مدى عمق تأثره بنسقه الإيتيقي ومساهمته في تعميق نظريته السياسية أو في مدى قوة تأسيسه المفهمي لأنطولوجية محايثة للوجود ، التي طاردت المتعالي في كل مكان إستعان به دولوز كشخصية تاريخية رئيسة حركت مجمل مشاهد فلسفته في أبعادها المختلفة ، أين صرح في أحد لقاءاته الحوارية مدي إعجابه وحب به كشخص وكفيلسوف في قوله : سبينوزا في قلبي ولا أنساه . هو الذي نال مني الجدية الكبرى التي تقتضيها تاريخ الفلسفة ، كان تأثيره علي بمثابة التيار الهوائي الدافع من الخلف عند قراءته " .

إستطاع دولوز من خلال قراءته التاريخية لفكر سبينوزا توليد فكر راهيني يستجيب لإشكاليات تتوافق مع متطلبات فلسفته ، من جهة إعادة إحياء بناءه الأنطولوجي وتكثيف دلالاته من خلال مفهوم التعبير للجوهر الواحد المعبر لذاته و صفاته والتي بها تحقق الكينونة أحاديثها المحايثة داخل نظام الطبيعة . هذه القراءة قدمها من جهة ماهي أنطولوجيا مضاد للديكائية ، بالانفتاح على سؤال الذات / الانسان من هذا العالم والكيفية

التي يتحقق بها وجوده ، من حيث تكوينه كدرجة قوة ورغبة وقدرة واقتدار . وليس كماهية عقلية ميزته عن باقي الموجودات فوضعت في قمة أعلى من غيره .

تكشف الأنثروبولوجيا السبينوزية عن مصموت الجسد بتحريك السؤال في مجاله العملي والعلمي أي في نطاق اتقيي بعيدا عن كل التصورات الأخلاقية المتعالية .

من خلال إستعادة النص السبينوزي ، وكثافته البرهانية ، يشرح دولوز دون اللجوء الى الفرضية الديالككتية . لعمل السلب ، كيف يمكن أن يتزعزع نظام العقلانية الكلاسيكية من الداخل وعلى هوامشها . هذا ما هو حي داخل الفكر السبينوزي . وهذا ما سعت القراءة الدولوزية ان تكشفه من خلال قرائته المعيقة لسبينوزا . اين غدت ضمن أكثر القراءات التحفيزية الجادة والمتجددة لبنائه النسقي والعملي ، فإذا كان ينظر الى السبينوزية اليوم كمصدر هام للتعامل مع أهم الاسئلة الفلسفية المعاصرة سياسيا ، ودينيا ، وسيكولوجيا وأخلاقيا ، فالأمر يدين في جزء كبير منه الى دولوز . انه الفيلسوف المعجزة كما وصفه لونوار ، فلسفة لإنارة حياتنا سعت لجعلنا أحرار وسعداء ، كسرت طوق الجهل بالمعرفة وعززت القدرة على فهم العالم والانسان . إنها رسالة سبينوزا الى البشرية جمعاء والى كل نفس عاقلة . رسالة وضعت نفسها في منزلة اللازمى صالحة في أي زمن ما بقي الانسان يفكر .

المراجع:

باللغة العربية

- جيل دولوز ، و كلير بارني . (1999). *حوراء في الفلسفة والأدب والتحليل النفسي والسياسة* . تر ، عبد الحي أرزقان ، و أحمد العلمي ، المغرب: أفريقيا الشرق
- جيل دولوز . (2021). *خارج الفلسفة نصوص مختارة* . تر ، عبد السلام بنعبد العالي ، و عادل حدجامي ، منشورات المتوسط
- جيل دولوز . (2015). *سبينوزا فلسفة عملية* . ط1 . (تر ، عادل حدجامي) المغرب: دار توبقال .
- جيل دولوز . (2004). *سبينوزا ومشكلة التعبير* . ط1 . (تر ، انطوان حمص) دمشق - سوريا: دار أطلس .
- جيل دولوز ، وفليكس غتاري . (1997). *ماهي الفلسفة* . ط1 . تر ، مطاع صفدي ، بيروت: مركز الانماء القومي .

- ALAIN BEAULIEU .(2003) .Éthique de Spinoza dans l'oeuvre de Gilles Deleuze .Dialogue.(42)
- Axel Cherniavsky .(2013) .L'art du portrait conceptuel Deleuze et l'histoire de la philosophie .Paris :Éditions Garnier.
- François Dosse .(2007) .Gilles Deleuze & FélixGuattari . Intersecting Lives .Trans , Deborah Glassman , New York: Columbia University Press.
- Gilles Deleuze .(2003) .Pourparlers 1972-1990 .Paris: les Éditions de Minuit.
- Jack, S & Charles, R. (2019). Spinoza in Twenty-First-Century American and French Philosophy (éd. 1). London, UK: BLOOMSBURY ACADEMIC.
- Lorenzo, V. (2009). SPINOZA IN FRENCH PHILOSOPHY TODAY. Philosophy Today, 53(4), 422.
- MOGENS, L. (2021). Spinoza in France, ca. 1670–1970. Dans M. Yitzhak Y (Éd.), A Companion to Spinoza (éd. 1, p. 506/507). États-Unis: Wiley-Blackwell.
- Olivier Lawrence ‘Couture Yves .(2018) .VERS DELEUZE Nature, pensée, politique .Canada: Les Presses de l'Université Laval.
- PIERRE MACHEREY) .Septembre, 1988 .Penser dans Spinoza . magazine littéraire.(257)
- Sévérac Pascal . Anne Sauvagnargues .(2016) .Spinoza-Deleuze lectures croisées .Lyon: Ens édiTions.
- SPINOZA .(2005) .Ethique . trans ; Robert MISRAHI ‘Paris : ÉDITIONS DE L'ÉCLAT.
- Stivale Charles J .(2011) .Gilíes Deleuze. Key Concepts .New York,: Routledge Taylor & Francis Group.